مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

مفهوم السلام في الفلسفة السياسية المعاصرة:

قراءة تحليلية في مشروع برتراند راسل

يونس لقرع
باحث مغربي

2025

- بحث محكم
- قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية
- 2025-10-20

جميع الحقوق محفوظة © 2025

مفهوم السلام في الفلسفة السياسية المعاصرة:
قراءة تحليلية في مشروع برتراند راسل

ملخص البحث:

يضيئ هذا البحث مفهوم السلام في الفلسفة السياسية المعاصرة، ويركز على أنشط فلاسفة المرحلة في الدعوة إلى السلام، وهو الفيلسوف الإنجليزي برتراند راسل، **الذي انطلق من واقع القرن العشرين، الذي شهد فيه العالم حروبا كثيرة، شكلت صدمة كبيرة للفكر الغربي بشكل عام، وللفيلسوف** برتراند راسل **بشكل خاص، بصفته أنموذج المفكر الملتزم؛ إذ انخرط بشكل كبير في إثارة القضايا الكبرى التي تواجه الإنسانية، وتمرد بلا هوادة ضد الحرب، محددا أسبابها وسبل تجاوزها، ويتمثل الحل الأساس الذي اقترحه** راسل **لتحقيق السلام العالمي في أربعة شروط رئيسة؛ أولها حكومة عالمية تحتكر السلاح وتستطيع فرض السلام، والشرط الثاني هو تحقيق الرخاء الاقتصادي وتحقيق عدالة توزيعية إلى درجة تنتفي معها مطامع بعض الدول في بعضها الآخر، والشرط الثالث هو أن يصبح عدد سكان العالم ثابتا أو قريبا من ذلك، والشرط الأخير هو الاهتمام بالفرد وتعليمه وتنمية الدوافع الإنشائية مع توزيع القوة بما يتفق والمحافظة على الإطار السياسي- الاقتصادي الضروري.**

مقدمة:

لقد دفعت حروب القرن العشرين، وخصوصا الحرب العالمية الأولى الفيلسوف الإنجليزي **برتراند راسل** إلى استخلاص وجهة نظر معينة عن مصادر التصرفات البشرية، وما يمكن أن تصبح عليه في المستقبل[1]، ورأى أنه لا مناص من تأمل عالمنا تأملا محايدًا، ومن ثمة تقويم الماضي والحاضر والمستقبل في حياتنا، كي ننظر إلى ما يفعله الإنسان وما قد يفعله في المستقبل خيرًا أو شرًّا[2]. لذلك، بدل الانتقال إلى مناقشة النتائج التي قاد إليها السلوك البشري، اختار **راسل** أن يبدأ أولا بالوقوف على الأسباب وفهمها، من أجل التغلب عليها، فعوامل الحرب كثيرة، ولن تتوقف إلا بإزالة الأسباب التي تؤدي إليها، وهو المنهج الذي سلكه راسل في معالجة إشكالية السلام.

لقد أحدثت الحرب العالمية الأولى تغيرًا كبيرًا في وجهة نظر **راسل** حول أسباب الحرب، خصوصا فيما يتعلق بالطبيعة البشرية، فبعد ما كان هو ودعاة السلام يربطون الحرب بإرادة الحكام الطغاة دون العودة إلى شعوبهم، سيقف **راسل** على حقيقة أخرى، وهي أن الطبيعة البشرية في ذاتها تحمل نزعة عدوانية تميل إلى الحرب[3]، ورأى أن "الحقيقة الأساس التي تتسبب في الحرب ليست علة اقتصادية أو سياسية، وهي لا تستند إلى أيّ صعوبة في اختراع الوسائل لحسم المنازعات الدولية بطرائق سلمية، إن الحقيقة الأساس التي تسبب الحرب هي أن شطرا كبيرا من بني البشر ينزعون إلى الخصام أكثر مما ينزعون إلى الألفة"[4]، وهي النزعة التي تعوق تحقيق السلام.

ولكنه، مع ذلك كان متفائلًا بإمكانية التغلب على هذه النزعات وقيادة البشرية نحو السلام، وفي حديثه عن أسباب الحرب لا يستبعد الأسباب السياسية والاقتصادية، لكن يركز أكثر على أسباب أخرى جرى تهمشيها في المرحلة المعاصرة.

---

1 برتراند راسل، نحو عالم أفضل، ترجمة عبد الكريم احمد ودريني خشبة، الطبعة الأولى (المركز القومي للترجمة، سنة 1956)، ص21

2 برتراند راسل، **هل للإنسان مستقبل**، ترجمة سمير عبده، الطبعة الأولى، (دار دمشق للطباعة والنشر، أبريل 1969)، ص 13

3 رمسيس عوض، **برتراند راسل الإنسان**، (سلسلة مذاهب وشخصيات، الدار القومية للطباعة والنشر، 1999)، ص ص: 45-46

4 راسل، **نحو عالم أفضل**، مرجع سابق، ص19

أسباب الحرب

إن أغلب النظريات السياسية التي حللت أسباب الحرب، لم تهتم بالعوامل النفسية بدرجة كافية؛ إذ ركزت على الاقتصاد وإحصاءات السكان والتنظيم الدستوري، ولكن الصعوبة لا تكمن في هذه الأمور فقط، بل في معرفة طبائع الإنسان وآماله ومخاوفه، فإذا أريد للسياسة أن تصبح علمية، فلابد أن نعمق البحث في مصادر الطبيعة البشرية، وأن نبحث في النشاط البشري ودوافعه، الذي يرى راسل أنه يقوم بالأساس، إما على الرغبة أو النزعة؛ إذ يمتلك الإنسان رغبات متنوعة مثل التملك والتنافس وحب القوة، وهي تختلف في درجة قوتها، وتحرك الفعل الإنساني إلى درجة قد تصل إلى الحرب[5]. وسعيًا إلى تفسير أسباب الحرب بوصفها من بين أسوأ الشرور التي يتعرض إليها الإنسان، وقف **راسل** على أسبابها التي قسمها إلى أسباب سيكولوجية، وأسباب أيديولوجية عقدية، وأخرى ترتبط بالعنصرية والقومية.

1) الأسباب السيكولوجية:

لقد قاد المشهد الذي شاهده **راسل**، والذي يظهر فيه الناس متحمسين إلى الحرب العالمية الثانية، إلى أن يعتبرها نتيجة طبيعية للانفعالات، ورأى أن الناس تسيطر عليهم انفعالاتهم التي تهيمن على عقولهم، ولو استطاعوا التحكم فيها، لوقاهم ذلك من «التفكير فيما يقود إلى الحرب، ولأمكنهم تسوية نزاعاهم بالطرائق الودية»، غير أن ضبط المشاعر التي ترفع إلى العنف ليس أمرًا سهلا، ولا يستطيع أن يقوم به إلا الذين تحولت لديهم الرغبة في الوصول إلى المعرفة الصحيحة فصارت انفعالا، فالعقل لوحده غير قادر على منع الحرب، والانفعال لا يستطيع القضاء عليه إلا انفعال أقوى منه، وبذلك فينا حاجة إلى نزاعات مضادة لتلك التي تقود إلى الحرب[6].

يرجع **راسل** أسباب الحرب إلى الطبيعة البشرية، ويفسر الحرب على أساس الانفعالات، صحيح أنه ليس أول من عاد إلى الطبيعة البشرية لتفسير أسباب الحرب، لكنه يبتعد عن النظريات السياسية في عصره، التي أعطت الأسباب السياسية والاقتصادية أهمية بالغة، وأغفلت الجوانب الأخرى، ويحدد **راسل** أسباب النزاعات الكبرى في: حبّ السلطة، المنافسة، الكراهية، والخوف. ويشكل التغلب عليها رهانًا أساسًا لتحقيق السلام العالمي[7].

وفي إطار تحليله أسباب الحرب العالمية الأولى، وقف **راسل** على رأيين في أسباب هذه الحرب، وعدّهما غير صحيحين معا: يزعم أصحاب الرأي الأول، أن سبب الحرب يرجع إلى شر الألمان، وهو منتشر عند أغلب الأوروبيين. أما الرأي الثاني، فنجده عند دعاة السلام الذين يميلون إلى اعتبار الحرب نتيجة

---

5 برتراند راسل، **المجتمع البشري في الأخلاق والسياسة**، ترجمة عبد الكريم احمد، (القاهرة، مكتبة الإنجليزية المصرية، 1960)، ص ص: 141-142

6 برتراند راسل، **نحو عالم أفضل**، مرجع سابق، ص ص: 22-23

7 برتراند راسل، **أثر العلم في المجتمع**، ترجمة صباح صديق الملوجي، الطبعة الأولى، (بيروت، المنظمة العربية للترجمة، 2008)، ص 131

للتعقيدات الدبلوماسية وأطماع الحكومات. والرأيان معا في نظر **راسل** عاجزان عن تحديد مدى تأصل الحرب في الطبيعة البشرية، فالألمان يخضعون للانفعالات كما يخضع لها البشر جميعهم، ولا يختلفون إلا في الظروف المحيطة بهم، كما أن غير الألمان الذين يتقبلون الحرب لأسباب غير صحيحة، يقعون ضحية نزعات جماعية معدية، لكوننا نتقبل أحيانا أشياء لا تقوم على دليل أو برهان، وهو ما يجعل الناس في كل مكان يؤمنون بأن الحرب ضرورية[8].

يرى **راسل** أن الأفعال البشرية ناتجة عن مصدرين أساسين؛ هما الرغبة والنزعة، غير أن الرغبة وإن كانت مصدر العديد من الأفعال التي نقوم بها، فإنها لا تتحكم إلا في جزء من النشاط الإنساني، وهو الجزء الواعي. أما الجزء الغريزي، فتتحكم فيه النزعات التي تقودنا نحو أفعال وليس إلى مجرد رغبات، هذه النزعات تتحكم في جزء كبير من أفعالنا؛ إذ تتحكم فيها أكثر مما تفعل الرغبات، إلى درجة أن النزعة غالبا ما تجر وراءها رغبات وهمية، فمن يرسم لوحة مثلا، معتقدًا أن عمله الإبداعي ناتج عن رغبة فيما قد يحصل عليه من ثناء، سرعان ما يفقد هذا الاهتمام عندما ينتهي، ليبدأ عملا جديدًا، إذا كان هذا العمل لم يشبع النزعة الإنشائية لديه، وما يسري على الإنشاء الفني يسري على أفعالنا الأخرى جميعها، «فالنزعات المباشرة هي التي تحركنا. أما الرغبات، فليست إلا ستارا للنزاعات»[9].

إن هذه النزاعات لا تعير النتائج أو المراقبة اهتماما، وهي تختلف حسب حياة كل شخص، إلا النزعات العمياء التي يمكن أن تودي بصاحبها إلى الهلاك كما قد تؤدي إلى أشياء جميلة، فهذه النزاعات هي سبب الحرب، وهي أيضا مصدر العلم والفن والحب. لذلك ليس المطلوب هو إضعافها، بل توجيهها بطريقة صحيحة، وهنا ينتقد **راسل** موقف دعاة الأخلاق الذي يرون أن تحكم الإرادة المطلق في النزعات ضروري، ورأى خلاف ذلك أن الحياة التي تقمع فيها النزعات هي حياة فارغة ودون حيوية، كما أن أسلوب العيش الذي تفرضه المجتمعات الصناعية يقود إلى النتيجة نفسها، لكون النزعات ليست فطرية فقط، وإنما ترتبط بالبيئة والظروف التي يعيش فيها الشخص، ولهذا الأمر تأثير عميق في النظم السياسية والاجتماعية ينبغي دراسته[10].

إن حقيقة الحرب لا ترتبط بما هو سياسي أو اقتصادي، بل هي مرتبطة بنزعة إنسانية تميل إلى الخصام أكثر من ميلها إلى الألفة، فكلما كانت للأفراد قوة عملوا على جعل أنفسهم أكثر مخافة، وتعاون الناس مع بعضهم لا يتم إلا عندما يقاومون أو يهاجمون عدوًّا مشتركًا، وهي حال العلاقات بين الدول نفسها. أما نزعة الشجار والاعتداء، فهي التي تؤدي إلى الحرب، "ولا تقتصر هذه النزعة على أمة واحدة من الأمم، بل هي كائنة، بدرجات متفاوتة، في أمم العالم القوية كلها"[11].

8 راسل. **نحو عالم أفضل**، مرجع سابق، ص22

9 المرجع السابق، ص ص: 23-25

10 المرجع السابق، ص26

11 المرجع السابق، ص: 19-91

وذهب **راسل** في تحليله هذا إلى نتيجة مفادها أن النَزعات هي المسؤولة عن الحرب، وليس العقل أو الرغبة، فهناك نزعة اعتداء، وأخرى مقاومة للاعتداء، وكل نزعة منهما معتقداتها التي لا تتفق مع العقل إلا في حالات قليلة جدا، وأعطي **راسل** أمثلة عن نزعات الاعتداء المصحوبة بمعتقدات بما حدث في اعتداء «برنهاردي» bernhardi))، وما حدث في عهد الفاتحين المسلمين الأوائل، وما نجده عند اليهود في سفر «يوشع»، فهناك إيمان واضح بتفوق اليهود الأسمى وأنهم شعب الله المختار، وأن هذا الشعب هو الجدير بالاهتمام. أما الشعوب الأخرى، فليست سوى ميدان يعرض فيه الشعب اليهودي قوته، وهو الموقف الذي نجده في السياسة الخارجية الحديثة، حيث يرى الأوروبيون أنفسهم في موقف متعال على الشعوب الإفريقية والآسيوية، كما ينظر الألمان إلى باقي الدول الأوروبية النظرة نفسها، كما أن نزعة مقاومة الاعتداء، نجدها بشكل واضح في شعور الأوروبيين نحو المسلمين في القرون الوسطى، والاعتقاد الذي يحمله أصحاب هذه النزعة هو أن الطرف المعتدي يحمل شرًّا لا مثيل له[12].

إن الحرب حسب **راسل** بوصفها نزالا بين فريقين، يمكن أن تكون وراءها مصلحة معينة، تكون عادة من أجل النفوذ أو طمعا في ثروة، إضافة إلى أن الناس يشعرون بلذة عندما يظهرون سلطانهم على الآخرين، غير أن هذه الأغراض ليست دائما هي سبب الحرب، حيث يمكن أن تكون نزعة الحرب نفسها سببًا في حد ذاته، فالحرب نفسها قد تشبع شهوة مركبة في طبيعتنا، فلو كانت الرغبات تقود الإنسان حقًّا إلى ما يجلب سعادته، لاقتنع بعدم جدواها وأقلع عنها منذ زمن طويل، لذلك يرى أن ما يجعلنا غير قادرين على منع الحرب هو أنها صادرة عن نزعة، أكثر مما تصدر عن تقدير للمنافع التي نريد تحصيلها منها[13].

واستمرارًا في تحليله الطبيعة البشرية يذهب **راسل** إلى أن التنافس والكبرياء هما أسباب الحرب الرئيسة، فإذا عدنا إلى سياسة ألمانيا ومن كان يقودها، وجدنا أنها كانت تقوم أساسا على التنافس، فهم كانوا يرغبون في تدمير الأشياء الجيدة في بلدان أخرى، كرغبتهم في ابتكار أشياء جيدة داخل ألمانيا، مثل فرنسا التي سحرت العالم بفنونها وآدابها، والإنجليز الذين سحروا العالم بنظامهم السياسي الذي يشجع الحرية السياسية، وهي كلها عوامل تثير الحسد الذي يدفع رغبة الحاقدين إلى تدمير ما هو جيد في دول أخرى وبالضبط الألمان في تلك الفترة، الذين تقوت عندهم رغبة القضاء على هذه النجاحات، بالإضافة إلى رغبتهم في خسارة القوة المتأتية من السيطرة على البحار والمضايق، والثروة التي حصلت بعد التفوق الصناعي، وهذا النقد اللاذع الذي وجهه **راسل** إلى ألمانيا، لم يسلم منه حتى موطنه إنجلترا، حيث اعتبر أن الألمان والإنجليز، لو استطاعوا أن يفكروا على أساس المنفعة الفردية لا على أساس الكبرياء القومية لانتهوا إلى السلم في الحال، وأن يسلكوا إليه وفق أفضل الشروط التي كان من الممكن الوصول إليها،

12 المرجع السابق، .ص26-28

13 المرجع السابق، ص79

وهو أفضل سبل يمكن أن تجنح إليه كل دولة لخيرها والعالم أجمع[14]، وهو النقد الذي جلب **لراسل** عداء كبيراً، وجعل بعضهم يتهمه بالخيانة.

ولكن، هذا لم يثنه عن الاستمرار في نقد إنجلترا واعتبرها لا تختلف عن ألمانيا، وأن دخولها الحرب ناتج عن كبرياء استمرار سلطتها على مستعمراتها، حيث كان على إنجلترا أن تسلم ألمانيا بعض المستعمرات، كي تبين لها أن مطامعها حمقاء، لكن بإصرار إنجلترا على الحفاظ على الوضع الراهن أشعلت ألمانيا الحرب لقلب هذا الوضع، ورغبة إنجلترا الدخول في حرب للحيلولة دون قلب الوضع الراهن لصالح ألمانيا، لذلك علينا حسب **راسل**، ألا نتشبث بسياسة الوضع الراهن ما دام العالم في تغير مستمر وموازين القوى فيه تتبدل باستمرار، ورأى أنه من «واجب الأمم، إذا كان لابد لها من صون السلام، أن تتعلم كيف تتقبل التغيرات التي تطرأ على خريطة العالم، والتي لا توافق هي عليها، دون أن تشعر بأن الواجب سيفضي إلى أن تنهزم، قبل الموافقة عليها، في ميدان الحرب، أو دون أن تشعر بأن التسليم بهذه التغيرات يعرضها للهوان»[15].

2) العنصرية:

إن الإنسان كي يتغلب على القتال الخارجي، يجب أن يتغلب أولا على تلك الحروب الداخلية التي تستوطن روحه، فقد رأى **راسل** أن «الروح التي لا تنعم بالسلام مع نفسها لا تستطيع أن تعيش في سلام مع العالم، ولابد من استمرار الحروب حتى تخفي عن أفراد الناس أن الحرب الداخلية في داخلهم»[16].

وفي ذلك لاحظ **راسل** أن العداء العنصري بين الشعوب يعدّ من المشكلات الصعبة التي ينبغي حلّها، إذا ما كنا نريد تحقيق السلام العالمي، واعتقد أن سبب هذا المشكل ناتج عن التفوق السكاني، حيث يحظى البيض مثلا بقوة أكبر لأنهم أكثر عددًا، ويستعرض مجموعة من الأحداث المرتبطة بالعنصرية، مثل العلاقة بين البيض والسود الإفريقيين، حيث اعتبر أن الاستغلال الذي مارسه الأمريكيون تجاه الأفارقة مدعاة إلى الخجل، فعلى الرغم من انتهاء الرق في القرن التاسع عشر، فإن الظلم ضدهم لم يتوقف، نتيجة وهم التفوق الذي يسكن البيض وأرواحهم، وأشار **راسل** إلى المذابح التي ارتكبتها حكومات البيض، مثل ما وقع في الكونغو في عهد حكم الملك «**ليو بولد الثاني**»، الذي تسبب في موت أزيد من 11 مليون قتيل[17].

---

14 المرجع السابق، ص 71-75

15المرجع السابق، ص ص75-76.

16 برتراند راسل. **آمال جديدة في عالم متغير**، ترجمة عبد الكريم أحمد، الطبعة الأولى، (القاهرة-آفاق للنشر والتوزيع 2018)، **ص ص**19-20

17 المرجع السابق، ص ص 106-107

إن للعنصرية أسبابًا أخرى غريزية تبرر الكراهية تجاه الآخر، وتدفعنا أحيانا إلى القتال معه، وهي ترتبط أساسا بالخوف مما هو غريب، كما يحدث في عالم الحيوان عندما يقوم النمل بقتل النمل الذي ينتمي إلى عش آخر، لكون «الغريب لا يمكن فهمه، وما لا يمكن فهمه خطر»، ويجعل الخوف من الخضوع للأجنبي سببا في كراهيته، لذلك شخّص **راسل** مصدر هذه الكراهية في مصدرين متعارضين في الظاهر، ومتصلين في الحقيقة؛ المصدر الأول هو رغبة المرء في أن يشعر بتفوقه، والمصدر الآخر هو الخوف من أن يصبح في مركز أدنى، لذلك كل من يؤمن بالتفوق يبقى مستعدًّا لمواجهة أي حالة تمرد أو عدم الرضا أو مطالبة بالمساواة، وهذا الخوف من زوال الامتيازات يجعل الخوف يتحول إلى كراهية، ومن ثمة إلى صراع[18].

ورأى **راسل** أن «أسباب الفرقة بين الأجناس المختلفة متباينة تماما، وهي تمتد من الغريزة العمياء إلى التقدير العقلي للمصلحة الذاتية»، وإذا كانت العلاقة بين الأمريكيين السود من النوع الأول، فإن الخوف من هجرة الآسيويين هو تقدير للمصلحة الشخصية لكون السماح لهم بالهجرة يؤدي إلى خفض مستوى المعيشة لدى الشعوب الأكثر رخاء، وهناك ثلاثة حلول لتجاوز مشكلة العنصرية، وتجنب شرورها كالشغب العنصري والشنق والمذابح مما تقوم به الغوغاء؛ ويكمن الحل الأول في تجنب كل اختلاط جغرافي. أما الثاني، فيتمثل في وضع نظام صارم من أجل التفرقة «الحل الأول: هو تجنب كل اختلاط والثاني: نظام صارم من التفرقة بين الفئات المختلفة. والأخير هو مساواة كاملة بما في ذلك حرية الزواج المختلط»[19].

ولذلك، انتهى **راسل** من تحليله لأسباب العداء العنصري إلى كونه «ميراثا لا تحرريًّا ولا عقليًّا ورثناه عن ماضينا الحيواني»، وعلى الرغم من أن القضاء عليه صعب، فإنه ليس مستحيلا حتى ينعم العالم بالسلام. وإذا كان العداء والحرب بين الشعوب ما زالا مستمرين، وأسبابهما لا يتوقفان على قرار الحكومات؛ لأن تراكم الانفعالات الشريرة في نفوس الأفراد المتفرقين منشؤها الأصل، فإنه من أجل أن نمنعها «يجب علينا ألا نوجه جهودنا نحو الحكومات فحسب، بل علينا أن ننظف قلوبنا من السموم التي تجعل الحرب تبدو معقولة: الكبرياء والخوف والجشع والحسد والاحتقار»، وعلى الرغم من صعوبة هذا الهدف، فإن أي تقاعس في نظر **راسل** نهايته هو الموت[20].

3) الأسباب العقدية والإيديولوجية

إن دعوة راسل إلى تحقيق السلام تقوم على أن نبدأ أولا بذواتنا، والعمل على الحد من الدوافع السلبية التي تستحوذ على أرواحنا، وذهب إلى كون أكثر أنواع الصراعات بين الجماعات البشرية شبت

18 المرجع السابق، ص ص 112-113

19 المرجع السابق، ص115

20 المرجع السابق، ص. ص: 117-118

عن خلاف عقدي. أما إذا كانت هناك حرب ثالثة، فستكون بسبب المصلحة الذاتية والعقيدة، لذلك فالصراعات البشرية، إما أنها تنشأ بسبب الخلاف حول المصلحة الاقتصادية، أو الخلاف العنصري، أو الخلاف حول العقيدة.

لقد خصص **راسل** جزءا كبيراً من تحليله أسباب الحرب للخلافات العقدية، واعتبرها مصدرًا أساسًا في الصراع بين الشعوب في الماضي والحاضر، وبين أن ما كنا نسميه «عقيدة» من قبل، هو ما نسميه أيديولوجيا اليوم، التي ليست سوى نظام من المعتقدات يؤدي إلى نوع من التصرفات، ويشير إلى أن من استعمل هذا اللفظ «الأيديولوجيا» هو **نابليون** عندما اعترض على الجمهوريين واصفًا إياهم بالإيديولوجيين. أما هو، فقد استعمل لفظ أيديولوجيا مرادفًا للعقيدة».[21]

واعتبر **راسل** أن العقيدة إذا كانت سببًا في النزاعات، فإنها لا تصبح كذلك إلا عندما تكون مصحوبة بتعصب، وأعطي العديد من الأمثلة الدالة على معتقدات دينية تعايشت دون عداوة تذكر؛ فالبوذية مثلا دخلت إلى الصين واليابان دون أن تشكل إزعاجًا للأديان القديمة، ولم يكن أحد في هذه البلدان متعصبا لوجود دين واحد، كذلك في العالم الإغريقي الروماني الذي وحد فيه الرومان آلهتهم بآلهة الإغريق؛ إذ سمحت روما بإقامة معابد لآلهة المصريين والبابليين، وساد في هذه الفترة مبدأ التسامح والحرية الدينية. وفي فترة قبل ظهور المسيحية، لم يكن سوى اليهود الذين لم يؤمنوا بهذا المبدأ؛ إذ تذكر الوصية الأولى «لا تكن لك آلهة أخرى أمامي». وبعد ظهور المسيحية، استمرت هذه الممارسة المناهضة للتعدد الديني؛ إذ رفضت المسيحية ألوان العبادة الوثنية كلها واعتبرتها «شركا» و«خطيئة كبرى»، وعندما اعتنقت الإمبراطورية الرومانية المسيحية، صارت هذه الممارسة أكثر تخصيصًا، حيث «لم يعد يكفي أن يكون المرء مسيحيا بل يجب أن يكون مسيحيا سنيّا (Orthodoxe)، وأن ينبذ ألوان البدع جميعها التي لحقت بالكنيسة في القرنين الرابع والخامس»، ويربط «راسل» ظهور الحروب الدينية بظهور الإسلام؛ إذ لا يختلف المسلمون أيضا عن اليهود والمسيحيين في التعصب لدينهم واعتقادهم أنه الدين الوحيد الصحيح الذين يعتنقونه، لكن مقارنة باليهود فهم أقل تشددًا مع الديانات الأخرى، وأمام هذا التعصب رأى **راسل** أنه كان من المستحيل أن يسود السلام بين المسيحيين والمسلمين[22].

لقد قارب **راسل** الحروب الدينية التي شهدتها أوروبا، ولاحظ أن الحرب طوال العصور الوسطى استعملت سلاحًا أيديولوجيا، واستدل بالعديد من الأمثلة على اضطهادات وحروب شنت من أجل الدين؛ إذ أرغم مثلا «**شارلمان**» **شعب** «السكسون» على اعتناق المسيحية وذبح كل من رفض ذلك، واضطُهد اليهود والمسلمون في إسبانيا وطردوا منها، غير أن الحروب الدينية في القرنيين السادس عشر والسابع عشر، كانت أقوى، حيث فرض حكام أوروبا دينهم على مناطق نفوذهم، وأصر كل ملك

21 المرجع السابق، ص 120

22 المرجع السابق، ص.ص: 121-122

على حق اغتيال ملك الطرف الآخر؛ إذ عمد مثلا «**رافايك**» في فرنسا إلى قتل «**هنري الرابع**» انتقامًا للهوجونوت. وفي إنجلترا قطع رأس الملك «**شارل الأول**»، وعلقت جثة «**كرمويل**» بالسلاسل، وقتلت حرب الثلاثين عاما الكثير من سكان ألمانيا. وفي مقابل هذا العنف، أشاد **راسل** بالهولنديين الذين أدركوا قيمة التعايش والتسامح بين البروتستانت والكاثوليك في سلام، في حين مارس الإنجليز المتعصبون الذين هربوا من الاضطهاد إلى أمريكا الشرور نفسها التي هربوا منها إلى حدود القرن التاسع عشر، القرن الذي عرف توقف هذه الممارسات بشكلها العنيف، واستمرت بعض الصور الخفيفة، في حين استمر العنف في أوروبا الكاثوليكية حتى الثورة الفرنسية، ليتم تعويض العنف الذي مصدره المعتقدات الدينية بعنف آخر صادر عن أهواء الحكام السياسية[23].

يشكل السجل الأوروبي في نظر **راسل** أسوأ سجل في ممارسات الاضطهاد الإيديولوجي مقارنة بسجل المسلمين أو الهنود أو الصينيين. فعلى الرغم من ادعاء الغرب التفوق، فإنه في مجال القيم هو أقل احترامًا وأقل تفوقًا من الأمم الأخرى، وإذا كان عليه أن يتفاخر بتفوقه، فإنه يشمل مجال العلم والأساليب الفنية والعلمية[24]. أما في مجال القيم، فهناك أدلة تاريخية كثيرة تثبت أن الأوروبيين أكثر اضطهادًا مقارنة بالشعوب الأخرى، وهو ما يتجلى بوضوح حتى يومنا هذا في العديد من الصراعات التي يخوضها أو التي يدعمها كما يفعل مع الكيان الصهيوني في حربه ضد الفلسطينيين، فإذا كان مفكرو الغرب أنتجوا خطابًا يبجل حقوق الإنسان، فإن حكوماتهم تظهر تخلفا كبيرًا في التعامل مع هذه الحقوق، إلى درجة أن أحزابًا في فرنسا وإنجلترا أصبحت تبني برامجها الانتخابية، بوعود ضد المهاجرين وتحملهم مسؤولية الشرور الاقتصادية والاجتماعية التي تعانيها دولهم.

لقد وصفت المرحلة المعاصرة بأنها أكثر تعصبا من أيّ مرحلة مضت، وقد ساهمت الحرب العالمية الأولى منذ سنة 1914م، بنصيب كبير منه نتيجة لما عناه الناس، وامتد هذا التعصب إلى الحكومات وجعل ممارستها السياسة المعقولة أمرا مستحيلا، حيث شهدنا تعصبًا كبيرًا ضد الألمان بعد نهاية الحرب، كما أن تعصب الألمان أنفسهم لنتائج الحرب العالمية الأولى، أدى إلى انتصار نازي وصعوده، وأدى تعصب ضد السامية إلى تعصب صهيوني، إضافة إلى تعصب شيوعي وتعصب ضد الشيوعية، لذلك يشكل هذا التعصب حاجزا ضد قيام السلام [25].

ورأى **راسل** أن التعصب الذي يسيطر على الشيوعيين مثلا يعود إلى قوتين: ترتبط الأولى بمبادئ كارل ماركس، وترتبط الثانية بروسيا؛ واعتبر أن ماركس كان يميل إلى العنف، ولم يتوقع أن تعتنق الطبقة البورجوازية آراءه، واعتبر أن الآراء السياسية تعبير عن مصالح الناس الاقتصادية لطبقتهم، فكارل ماركس عندما ينظر إلى التقدم في التاريخ على نحو حتمي تنتصر فيه البروليتارية في آخر المطاف يغذي الكراهية،

23 المرجع السابق، ص. ص: 122-123

24 المرجع السابق، ص123

25 المرجع السابق، ص ص124-125

وجعل هذه الفكرة مبدأ كونيًّا، ومصدر كل تقدم، وهو ما يرفضه **راسل** معتبرا ذلك غير منطقي، لكون ماركس بنى اعتقاده على سقوط الرأسماليين وما يرتكبونه من انتهاكات على قدر محتوم، وليس عن شرهم بصفتهم أفرادا، فدراسة **راسل** لمشاكل عمال المصانع البريطانية في فترة استغلال الأطفال في العمل والمجاعة التي تعود إلى قوانين الغلال، ما جعله يخرج باستنتاج مفاده أن الكراهية في هذه الفترة وفي ظل هذه الظروف أمر طبيعي»[26]، ولا ترتبط بالطبقة كما قال كارل ماركس، بل ترتبط بالإنسان عموما، بغض النظر عن الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها.

ولذلك انتقد **راسل** فكرة التقدم في التاريخ عند كارل ماركس، التي ستنتهي بسيادة الطبقة الواحدة واعتبرها مجرد أسطورة، على الرغم من أنها وجدت من يرحب بها خصوصا الفئة الأقل حظًّا، مثلما فعلت المسيحية عندما اعتنقتها الفئة الضعيفة في الإمبراطورية الرومانية، ونظر إليها بأنها مخلصهم من الاضطهاد الممارس ضدهم، واعتبر **راسل** أن أفكار ماركس لم تلق القبول في إنجلترا وأمريكا؛ لأن العمال في هذه البلدان يعيشون في رخاء مقارنة بما هو عليه الحال في روسيا، نظرًا إلى تخلفها الصناعي، الشيء الذي جعل أفكار ماركس تلقى القبول ووظفها أنصاره من أجل الوصول إلى الحكم. لذلك انتقد **راسل** التعصب الذي سيطر على الشيوعيين معتبرًا أفكارهم خطرًا على السلم العالمي؛ لأن هذا التعصب جعلهم بعيدين عن حسن النية، الأمر الذي جعل المعاهدات والاتفاقات تبدو عندهم من دون جدوى، وهو ما يعوق أي سبل التعاون[27]. غير أن استنتاج **راسل** ليس في محله؛ لأن التفاوت الطبقي موجود في كل الدول، وكان الأولى به أن يضيف عبارة «بعض العمال» بدلا من هذا التعميم الذي أضعف حجته.

إن السبب الأساس في التعصب، هو عندما يتم اعتبار أمر ما مهمًّا بنسبة تفوق أي أمر آخر، وهو لا يصبح مؤذيًا إلا عندما يكون عدد معتنقي العقيدة التعصبية كبيرًا يسمح بتعريض السلام للخطر. أما داخليا، فتعرض الدولة لحرب أهلية، أو خارجيا تنتج عنها حرب دينية، أو كما وقع في العصور الوسطى عندما استولى حكم القديسين المتعصبين على أوروبا، ومارسوا الاضطهاد وتسببوا في الجمود العقلي، غير أن السبب الرئيس هو الشقاء والفقر؛ لأن ما جعل الألمان يقبلون التعصب النازي هو الفقر والإذلال، وما ترتب على معاهدة فرساي إثر هزيمته في الحرب، وكذلك الأزمة الاقتصادية العالمية، بالنسبة إلى التعصب الروسي الذي يعود إلى الأفراد[28].

هكذا، فإن تحقيق السلام يجب أن يتجاوز الاختلافات المذهبية، ويؤسس لثقافة التسامح، بعيدًا عن شرور التعصب المذهبي والكراهية المسؤولة عن الحروب، التي إن استمرت فإنها ستؤدي إلى مقبرة جماعية للجنس البشري، خصوصا إذا فقدت الحكومات الأساليب العقلانية في تدبير النزاعات، واستعملت الأسلحة النووية كما تهدد بذلك دول معينة.

26 المرجع السابق، ص. ص: 125-126

27 المرجع السابق، ص. 131-127

28 المرجع السابق، ص. ص: 132-133

السلام عند «راسل» وشروط تحققه

إن المشكل الأساس والملح أمام الجنس البشري هو تهيئة شروط القضاء على الحرب[29]، وهي المهمة التي انشغل بها **راسل** المعروف بنشاطه الرافض للحرب، والمكرس حياته داعيًا إلى القضاء عليها، حيث خصص جزءا كبيرًا من كتبه السياسية للبحث في وسائل تجاوز التوتر في العلاقات الدولية، وجادل أن البشرية إذا أرادت أن تنعم بالسلام وتتخلص من حالة الصراع والحروب، فيجب أن تكون هناك حكومة عالمية، على الرغم من أن هذه الفكرة قديمة وطرحها العديد من مفكري العلاقات الدولية مثل غروتيوس وبوفندورف، إلا أن تصورهم هذه الحكومة وآليات اشتغالها وأهدافها لم ينضج بالشكل الكافي، بل كان في أغلبه إسقاطا لأدوار الدولة القومية على النظام العالمي أو بناء تحالفات إقليمية ضيقة.

ولتحقيق السلام العالمي، اقترح راسل أربعة شروط رئيسة، إذا توفرت تحقق الاستقرار؛ أولها حكومة عالمية تحتكر السلاح وتستطيع فرض السلام، وثانيها تحقيق الرخاء الاقتصادي وتحقيق عدالة توزيعية إلى درجة تنتفي معها مطامع بعض الدول في بعضها الآخر، وثالثها أن يصبح عدد سكان العالم ثابتا أو قريبا من ذلك، وآخرها الاهتمام بالفرد وتنمية الدوافع الإنشائية مع توزيع القوة بما يتفق والمحافظة على الإطار السياسي الاقتصادي الضروري[30].

1) الدولة:

يمر تأسيس السلام العالمي حسب **راسل** عبر إصلاح الدولة، غير أن الدولة الحديثة بلغت حدًّا من التضخم تجب إعادة النظر فيه دون أن تفقد منافع وجودها، لذلك بحث **راسل** في اختصاصات الدولة، ورأى أن هناك أعمالا تقوم بها الدولة كالبريد، والتعليم الأولي يجب أن تقوم بها هيئات خاصة، على أن تبقى للدولة مهمة ملاحظة سير هذه الأعمال فقط. أما القضاء والشرطة والجيش والأسطول، فهي بالضرورة أعمال من اختصاص الدولة، فالدولة بوصفها تجميعا لقوة مواطنيها تتوزع قوتها بين ما هو داخلي وما هو خارجي، تتمثل القوة الداخلية في القضاء والشرطة، وتتمثل الخارجية في الجيش[31].

ويرتبط السبب الأساس الذي جعل **راسل** يدعو إلى إعادة النظر في مهام الدولة، هو ما وصلت إليه الأنظمة السياسية والاقتصادية من طغيان، حيث أصبحت تعرقل نمو الفرد، وجعلته يخضع لسلطتها ويخدم مصالحها ورغباتها، دون أن يتمكن من تحقيق ذاته، مما يؤدي إلى إحساس الفرد بالعجز، وأنه بعيد عن المشاركة في القضايا الجوهرية حتى في الدول الديمقراطية؛ لأن من يقرر فيها فئة قليلة من الموظفين والرجال البارزين، مثل الولايات المتحدة الأمريكية، حيث نجد أن الناس على الرغم من

---

29 برتراند راسل، **هل للإنسان مستقبل؟**، ترجمة سمير عبده، الطبعة الأولى (دار دمشق، أبريل 1969)، ص 82

30 برتراند راسل، **المجتمع البشري في الأخلاق والسياسة**، ترجمة عبد الكريم احمد، (القاهرة، مكتبة الإنجليزية المصرية، 1960)، ص203

31 راسل، **نحو عالم أفضل**، مرجع سابق، ص.ص: 45-46

ديمقراطيتهم لا يقررون في المسائل الكبيرة التي لها تأثير فيهم، وبذلك أدى طغيان الأنظمة السياسية الحاكمة إلى عدم تحقيق العدالة والحرية[32].

إن سلطان الدولة حسب **راسل** بلغ حدًّا أصبح معه كل من يعارض سياستها مجرمًا، وتشكل الخدمة العسكرية الإجبارية أبلغ مثال على ذلك، حيث انتقدها راسل بشدة، واعتبر أن الدولة التي تدفع بمواطنيها إلى المشاركة في حرب لا يريدونها تمارس شرًّا عظيمًا، يشبه الشر الذي مارسته الكنيسة عندما كانت تحكم بالإعدام على كل مخالف لسنتها، فيما عرف بمحاكم التفتيش، ورأى أن «الديمقراطيات الحديثة تفرض على مواطنيها الطاعة العمياء، والرغبة التي لا حد لها في القتل، بالقدر الذي كان مفروضا على الانكشاريين من جنود سلاطين العصور الوسطى، أو على رجال البوليس السري من حاشية طغاة الشرق»[33].

ويظهر سلطان الدولة ويتقوى بصورة واضحة أكثر في قدرتها على تزييف الرأي العام؛ فالوسائل التي تمتلكها من صحافة وخطابة، لها من التأثير ما يقدرها على أن تخلق رأيا عامًّا أكثر استبدادية وعداوة للحرية لا يقل خطرًا عن استبداد القوانين، فعندما يرفض شاب مثلا خوض حرب يظن أنها لا تعنيه، سيجد نفسه وحيدًا ضد المجتمع الذي يحكم عليه بالنفي من الحياة العامة إلى درجة تشبه الحكم بالإعدام، وهذا يجعل الرأي العام، إلا في حالات نادرة، تابعا لسلطان الدولة[34].

وفي تحليله أسباب خضوع الأفراد واستسلامهم طواعية لسلطان الدولة، لاحظ راسل أن بعضها قديم والآخر حديث، فالأسباب القديمة ترتبط أساسا بالولاء لصاحب السلطان وشخصه. أما الأسباب الحديثة، فترتبط أساسا بالكبرياء القومية، كما أن سلطان الدولة خارج حدودها، يعود إلى الحرب أو التهديد بالحرب نظرًا إلى امتلاكها جيشا وأسطولا تستطيع أن تغزو بهما دولا أخرى، وهو نشاط أناني تعمل من خلاله الدول على فرض سلطانها على دول أقل قوة منها، من أجل استغلالها[35].

وهي أسباب تجعل في نظر **راسل** «الشر الذي يجلبه على العالم الحديث سلطان الدولة المفرط في التضخم شرًّا عظيما»، حيث أصبحت الدول في سباق تسلح، وكل واحدة منها تحاول الارتقاء بكفايتها الحربية حتى لا تلحق بها دولة أخرى، وإن كان هذا التسلح لغرض دفاعي، فإنه من المحتمل استخدامه خارجيًّا، لهذا كلما ازدادت قوة الدول الداخلية زاد الخطر الذي يتربص بالعالم في كل مكان، ورأى **راسل** أن «النظام الحالي نظام غير معقول، ما دام أن الفوضى الداخلية والفوضى الخارجية لابد أن تكون كلتاهما صوابا أو أن تكون كلتاهما على خطإ»[36]، فقيمة الدولة والغرض الأساس الذي صممت من أجله

32 المرجع السابق، ص 33

33 المرجع السابق، ص.ص: 47-48

34 المرجع السابق، ص.ص: 49-50

35 المرجع السابق، ص.ص: 50-51

36 المرجع السابق، ص.ص: 55-56

هو منع أي شخص من استخدام القوة تجاه الأفراد داخل الرقعة الجغرافية التي يشتركان العيش داخلها، لكن أكبر مساوئها هي تلويحها بالعنف تجاه الدول الأخرى، ومن ثمة لا سبيل إلى تجاوز التعاسة التي يعانيها العالم نتيجة هذا النظام، إلا بقهر هذا السلطان بقوة أكبر منه تتمثل في الحكومة العالمية.

ولذلك، فأهمية بناء الدولة الداخلي تأتي في المرحلة الأولى قبل الحديث أن علاقتها الخارجية وكيفية تنظيمها، فإذا كانت الدول تحكمها أنظمة الطغيان فستكون غالبًا مولعة بالحروب الخارجية، لذلك أكد راسل ضرورة تطبيق القانون بدل اللجوء للقوة، فترك الحرية المطلقة للدول سيجلب الدمار للبشرية وينبغي تقييدها عبر إنشاء حكومة عالمية.

2) نزع التسلح:

إن الحديث عن شروط تحقيق السلام وبنائه هو اعتراف بأن الحالة الراهنة ليست حالة سلم، بل هي حالة صراع، لذلك فالسؤال الأساس الذي اهتم به **راسل** في قضية السلام، هو ما الذي نستطيع عمله؟ فتفكيره كان منصبًّا على إيجاد طريقة لتغيير واقع الحرب والمآسي التي أفرزها القرن العشرون، والتي يمكن أن تستمر في المستقبل، إذا لم نستطع إيقافها، ف**راسل** الفيلسوف الذي يفكر في مآسي عصره وما انتهى إليه، هو نفسه المناضل الذي انشغل على المستوى العملي بمهمة تغيير العالم، عبر المشاركة في الأنشطة الداعية إلى السلام، وحاول أن يبين للعالم أن الانتصار في الحرب مجرد وهم، وأن نتيجة أي حرب هي الخسارة لجميع الأطراف.

لقد جعل هذا الاهتمام بتحقيق السلام، **راسل** منشغلا أكثر بوضع الشروط التي من شأنها أن تضمن الاستمرار في البقاء لمدة طويلة، والقضاء على الفوضى الدولية، وأبرزها هو التحكم في القوة العسكرية ونزع السلاح؛ وذلك عبر تجميع أسلحة الحرب الرئيسة في سلطة واحدة، تصبح قوة احتكار مانعة أي تمرد من شأنه أن يدمر بقاء الجنس البشري، ومن أجل الحرص على عدم تطور الولاءات القومية، داخل الحلف العسكري، يجب أن تكون الفرق العسكرية كبيرة وخليطا من قوميات مختلفة، وأن تعطى مناصب قيادة الدول الصغيرة التي لا تملك حلم السيطرة على العالم، وكذلك منح حق التفتيش من قبل الحكومة العالمية للتحقق من أن الدول كلها قامت بنزع سلاحها[37].

لقد دعا **راسل** إلى أن يكون للهيئة الدولية المفروض تأسيسها، لتنظيم العلاقات بين الدول، جيش وأسطول لا يكون لغيرهما وجود، لتتمكن الحكومة الدولية من بسط سيطرتها، حيث من «الضروري، لكي نمنع الحرب ونحافظ على حريتنا في الوقت نفسه، ألا تكون في العالم إلا دولة عسكرية واحدة، وأنه حينما ينشب نزاع بين بلاد مختلفة، فلابد أن تتصرف هذه الدولة العسكرية وفق قرار تصدره هيئة مركزية، وهذا هو ما يمكن بالطبيعة أن ينتج من اتحاد يجمع العالم كله، إذا تحقق تكوين مثل هذا

37 راسل، **هل للإنسان مستقبل؟**، مرجع سابق، ص.: 89-93

الاتحاد يوما ما»[38]. على الرغم من أن الطريق إلى بناء مثل هذا الاتحاد ما زال طويلا، وليس من الصعب التكهن بالخطوات التي يجب القيام بها في سبيل تحقيق ذلك، فإن تفاؤل راسل جعله يرى أن هناك تزايدًا في الخضوع لصوت العقل بدل القوة، وأنه علينا التنبه إلى أن المطامع والصراعات الدولية مجرد وهم، وحتى لو قام نزاع حقيقي، فيجب إدراك أن الاستسلام قد يكون أفضل من الدخول في حرب هي أكثر عذابا، خصوصا مع تقدم الاختراعات الحربية التي جعلت الحرب أكثر تدميرا[39].

تعتمد الطريقة المرغوب فيها لتحقيق السلام العالمي حسب **راسل** إلى حد كبير، الاتفاق الطوعي بين الدول على نزع القوة المسلحة والخضوع للسلطة الدولية التي يسميها الحكومة العالمية، مع الاحتفاظ بالمستوى الضروري من قوات الشرطة لضمان الأمن الداخلي، والرفض الكلي لأي دولة تحتفظ بأسلحة نووية، أو أي نوع آخر من أسلحة الدمار الشامل التي يمكن أن تهدد مستقبل الإنسان[40]، وهي خطوة عملية يرتبط تحقيقها بإرادة سياسية قوية تتجاوز صراع المصالح.

وإذا كانت الحكومة العالمية هي التي تحدد استخدام القوات المسلحة، فإن أي نزاع بين دولتين، تستعمل فيه دولة القوة ضد دولة أخرى، يجب أن يواجه باللجوء إلى عقاب من قبل القوات المسلحة العالمية، وهي مسألة ضرورية إذا ما كنا نريد جعل السلام أمرًا ممكنًا، لذلك إضافة إلى السلطتين التشريعية والتنفيذية، هناك الحكومة العالمية التي تتمتع بسلطة عسكرية تستخدمها متى تم تهديد السلام العالمي، ومع أهمية الرضا ودوره المهم في إنشاء الحكومة العالمية فإنه غير كافٍ؛ إذ لابد من القوة العسكرية والحفاظ عليها خصوصا في بدايتها، إضافة إلى القضاء على الأسباب الكبرى المؤدية إلى الصراع، ليس في صورته اليومية، بل صراع المصالح الكبرى التي يفضل فيها القتال، مثل مشكلات السكان والمذهب والعنصر التي عرضناها في الفصل الثاني[41].

إن فكرة نزع أسلحة الدمار الشامل التي دافع عنها **راسل** لا تقوم على مبررات خلقية فقط، بل أيضا لقدرتها التدميرية التي إذا استخدمت عرضت الطرفين معًا إلى الهزيمة؛ ففكرة الحرب في عصرنا فكرة سخيفة؛ لأن الشعوب التي تقبل سياسة الحرب تقع ضحية تضليل غير مقدر العواقب[42]، فحتى الاشتباك العسكري يخضع لقواعد معينة، وقبول استخدام السلاح النووي ليس في مصلحة الأطراف جميعهم بغض النظر عن الأسباب الخلقية التي ننكر أهميتها، ولكن بحكم أن العلاقات الدولية تحكمها المصالح بالدرجة الأولى تبقى خطوة نزع السلاح مهمة للحفاظ على بقاء البشرية، ومهمة الفلسفة أن تفضح أي تضليل أيديولوجي تمارسه أيّ جماعة سياسية.

---

38 راسل، **نحو عالم أفضل**، مرجع سابق، ص90

39 برتراند راسل، **مثل عليا سياسية**، ترجمة فزاد كامل عبد العزيز، (الدار القومية للنشر، بدون سنة)، ص.ص: 59-60

40 راسل، **هل للإنسان مستقبل؟**، مرجع سابق، ص: 91-92-93

41 برتراند راسل، **آمال جديدة في عالم متغير**، عبد الكريم أحمد، (طبعة أفاق الأولى القاهرة، 2018)، ص.ص: 100-101

42 راسل، **هل للإنسان مستقبل؟**، مرجع سابق، ص 119

3) الاقتصاد:

إن تأسيس حكومة عالمية فعالة وتحقيق السلام رهينان باتخاذ إجراءات اقتصادية ضرورية، أبرزها تحقيق مساواة اقتصادية بين الدول الفقيرة والدول الغنية؛ إذ لابد من «رفع مستوى الحياة في الدول التي تعتبر الآن دولا نامية، إلى المستوى الذي يسود بين أوساط السكان، حتى تتحقق العدالة الاقتصادية بين أجزاء العالم المختلفة»، فلا تنمو مشاعر الحسد والكراهية عند الدول الفقيرة إزاء الدول الغنية، وأيضا حتى تتجنب هذه الأخيرة خطر العنف من قبل الأقل حظا من الثراء، كما يجب توفير عدالة اقتصادية في المواد الأولية الجوهرية، والتي توجد في بعض الدول فقط؛ إذ إن المواد الأولية المستخدمة في الصناعة يجب أن تمتلكها سلطة دولية وتوزعها بشكل عادل[43]، لذلك اقترح راسل أن الحكومة العالمية مطالبة بتحقيق المساواة الاقتصادية في مختلف أنحاء العالم لمعالجة الدوافع الكامنة وراء النزاعات المؤدية إلى الحرب؛ لأنه اعتبر أن «استمرار محاولة الاتجاه نحو العدالة الاقتصادية، يجب أن يكون جزءًا من السعي نحو سلم دائم ومضمون»[44].

انتقد **راسل** النظام الاقتصادي الحالي، واعتبره أكثر الأنظمة تدميراً للحياة بعد النظام العبودي، وما دام أنه لا يمكن التخلص من النظام الصناعي الذي يميزه، فلا بأس من الإبقاء عليه داخل نظام جديد يطلق عليه «الاتحاد الصناعي الديمقراطي»، ويعود سبب هجوم **راسل** على النظام إلى أنه أفسد سلوك الأفراد، ووجه رغباتهم إلى غايات خاطئة؛ لأن رغبات الناس تنقسم إلى رغبات اقتنائية وأخرى إنشائية، تقوم الأولى على اقتناء شيء لا يمكن أن تكون ملكيته مشتركة، وتهدف الثانية إلى خلق شيء ثمين من معرفة وفن أو خير، وليس فيها ملكية خاصة، وأعلى **راسل** من قيمة النزعات الإنشائية على حساب النزعات الاقتنائية، لكون الحياة القائمة على التملك غالبا ما تقود إلى المنافسة والحسد والسيطرة وغيرها من الشرور التي تملأ العالم، ورأى أن الأنظمة السياسية يجب تكييفها لترتقي بالنزعات الإنشائية؛ لأن تحرير النشاط الإنشائي ينبغي أن يكون هو الهدف الأساس وراء أي إصلاح سياسي أو اقتصادي، غير أن ذلك ليس هو ما تقوم به الدولة الحالية التي تشجع النزعات الاقتنائية التي هي رمز من رموزها، ما دامت تستعمل القوة لاستغلال الشعوب ومنافسة الدول الأخرى[45].

لاحظ راسل أن الذين يعرفون أضرار استعمال القوة وتفاهة الأشياء التي نحصلها بواسطتها، يحترمون حريات الآخرين، ويميلون إلى التعاطف معهم واحترامهم؛ وذلك عندما تتقوى الدوافع الإنشائية على حساب غريزة التملك، فمعيار الحكم على المجتمعات السياسية والاقتصادية، وما ينبغي أن تكون عليه، يعتمد ما تقدمه من خير وشر، ومدى تشجيعها الإبداع على حساب التملك، ورفع الاحترام بين الإنسان وأخيه، وكذا مدى محافظتها على احترام الإنسان ذاته، وهو ما لم ترق إليه المجتمعات الحالية؛ فالقوة لا

43 مرجع سابق، ص.ص: 149-150

44 المرجع السابق، ص96

45 راسل، **نحو عالم أفضل**، مرجع سابق، .ص: 18- 194

تصبح مشروعة إلا ضد أولئك الذين يستعملون القوة لإخضاع الآخرين، ولا يحترمون القانون، أو عندما تعترض الأقلية على قرار الأغلبية، وهي الحالات المشروعة لاستخدام القوة حتى في العلاقات الدولية لو وجدت حكومة عالمية، فالميل نحو القوة يمكن أن يختفي لو قضينا على سبب ذلك وهو الميل إلى التملك، وعلى الدولة أن تضعف الدافع إلى القوة والسيطرة عبر زيادة فرص الدوافع الإبداعية وإصلاح التعليم الذي يغرس هذه الدوافع، وتخفيف الفرص للتعبير عن الدوافع التملكية، وكذلك توزيع القوة في المجالين السياسي والاقتصادي، وإصلاح النظام الاقتصادي من خلال مراجعة نظام الأجور، الأمر الذي سينتج عنه تحطيم الباعث الرئيس على الخوف والطمع[46]، أحد الأسباب التي تؤدي إلى الحرب.

وتلعب الأنظمة الاقتصادية حسب **راسل** دورًا مهمًّا في تشكيل سلوك الأفراد وتوجيهيه، فهي تنمي روح المغامرة أو تغرس فيهم الجبن، وهي تشجع الفكر أو تقمعه، فالدوافع الإنسانية تتشكل داخل مجال القومية والفرص، والنظام الاقتصادي الحالي يجعل المجتمعات الحالية قائمة على القوة والملكية غير موزعين بطريقة عادلة، ما يجعل الإنسان المعاصر مقيدًا ومسلوب الحرية، ولا سبيل إلى استغلال طاقته الإبداعية إلا بتحريره من الحاجات المادية، وأن يعطيهم نصيبهم من القوة، فعالمنا اختل فيه كل شيء إلى درجة أصبح معها حتى من وهبته الطبيعة دوافع الإبداع يصاب بعدوى المنافسة[47].

إن الشر والظلم الذي تعانيه البشرية لا يتمثل في الحرب فقط التي لا تعتبر في نظر **راسل** سوى نتيجة أخيرة للظلم في توزيع الثروة والاستغلال من أعمال شاقة وتعليم سيء، فيما تتمتع فئة قليلة من الثروة وتحرص ألا ينتبه المستَغلون وينقضوا عليهم، فالخيرات المادية هي ما يسيطر على غاياتنا، ويعدّ التملك بوصفه الشعور الذي يدفع إلى الاستحواذ والتحفظ هو سبب الحرب المباشر، لذلك تصبح إقامة هيئات تقلل من هذا الشعور ضرورة لا مناص منها، من خلال بناء نظام اقتصادي جديد بدل النظام الرأسمالي، فهذا الأخير ونظام الأجور الذي يعتمده هو ما يقف وراء فساد العالم، لذلك نحن في حاجة إلى نظام اقتصادي آخر يختزل الغرائز الوحشية في الحياة الإنسانية، وطغيان رجال الأعمال ويمنع العمال من الحرمان، ويجعلهم يشاركون في إدارة الصناعة التي يعملون فيها، من خلال بلورة نظام جديد يمكن أن يتحقق عن طريق الديمقراطية.[48]

وأخيرًا، وإن كان هذا النظام في نظر بعضهم عسير التحقق، فإن **راسل** يرى أن أي هيئة سياسية يجب أن تكون لها أهداف قريبة وأخرى بعيدة تترك للمستقبل، يقول عن هذا «وعلى الرغم من اعتقادي أن كل هذا صحيح، فلست بأقل اعتقادا مع ذلك من أن الإصلاح الحق والبناء الصحيح يتطلبان رؤية بعيدة، وتكهنا عبر المستقبل القريب، وفهما لما يمكن أن يفعله البشر بالحياة الإنسانية إذا أرادوا

---

46 راسل، **مثل سياسية عليا**، مرجع سابق، .ص: 6-13

47 المرجع السابق، ص.ص: 7-8

48 المرجع السابق، ص 16

واختاروا، فبغير هذا الأمل الواسع والرجاء العريض لن يملك الرجال القدرة والطاقة والحماسة اللازمة للتغلب على العقبات»[49].

4) التعليم:

يمر تحقيق السلام عند **راسل** عبر القضاء على أسبابه، انطلاقا من مجموعة الخطوات والإجراءات التي يعدّ التعليم أهمها؛ فالعلاقات الاجتماعية ترتبط ارتباطا وثيقا بالتربية، حيث أصبحنا نعيش في عالم مجنون تسيطر عليه مشاعر العداوة والكراهية، بدل استعمال العقل من أجل خلق تعاون دولي، ما دمنا نتوفر على الوسائل الممكنة، وما على الإنسان سوى معرفة كيفية استثمارها من أجل تجاوز هذه التعاسة[50].

ويعتبر أن ما يحرك الأفراد والجماعات حافزان متعارضان؛ أحدهما هو التعاون ويجب تقويته، والآخر هو التنافس ويجب السيطرة عليه، وما دام عالمنا اليوم تتقدم فيه الوسائل العلمية، فهي تعيننا على خلق هذا التعاون في مقابل السيطرة على التنافس حتى لا يتحول إلى سبب في الحرب، ولذلك يجب أن يكون الهدف الأساس هو تربية الناشئة على التعاون العالمي، وتقوية مشاعر الإنسانية[51].

لقد أثبتت الحياة اليومية حسب **راسل** أن التربية التي تنتج المواطن تختلف تماما عن تلك التي تريد أن تنتج الفرد، خصوصا أن تدخل الدولة في التربية أمر لا يمكن إنكاره، وهو ما يجعلها تعمل أكثر على خلق مواطنين يدعمون النظام القائم، فعناصر المواطنة التي تعلم في المدارس والجامعات تركز على الولاء العسكري للحفاظ على المصالح الخاصة في الجماعة، الأمر الذي يخلق نوعا من الكراهية بين الشعوب، وحتى المثقفون الذين يفترض فيهم الاصطفاف إلى جانب الحق ومواجهة خطابات الكراهية والعنف تجدهم يميلون إلى تأكيد أهمية القانون والنظام[52].

فقد ذهب **راسل** إلى أن خير الإنسان يكمن في إشباع العقل والوجدان والإرادة معا، وإذا كان العقل والوجدان لا يثيران أي إشكال، فإن الإرادة ليست الشيء نفسه، فعندما تمارس إرادتك، فلابد أن يتأثر باقي أفراد المجتمع، فكلما توسع نطاق حريتك، ضاق مجال الحرية عند الآخرين، وما دام أن التعايش هو سمة الإنسان، فإنه لابد من حد الإرادة بالتربية والأخلاق، فجعل الإرادة مطلقة يهدد العيش المشترك. لذلك، فإن مشكلة التربية التي تقتضي التوفيق بين تربية الفرد وتربية المواطن ترتبط أساسًا بمجال إرادته، ويكمن الحل في «ألا ننقص من إرادة الفرد المطلقة إلا بالحد الأدنى الذي يقتضي

---

49 المرجع السابق، ص26-17

50 برتراند راسل، **التربية والنظام الاجتماعي**، ترجمة سمير عبده، الطبعة الثانية، (لبنان، منشورات دار مكتبة الحياة، 1978)، ص 238

51 رمسيس عوض، **برتراند راسل المفكر السياسي**، (الدار القومية للطباعة والنشر، 1966)، ص: 80

52 راسل، **التربية والنظام الاجتماعي**، مرجع سابق، .ص: 19-20-12

كونه مواطنا، فالفرد أولا والمواطن ثانيا»[53]، وهنا تظهر أهمية الحرية بالنسبة إلى راسل التي لا يجب أن نحد منها إلا للضرورة.

وإذا كان هذا حال الحرية الفردية، فالشيء نفسه بالنسبة إلى الدولة، لهذا يطمح **راسل** إلى قدر أكبر من الحرية، مع حدود جديدة يجب أن تفرض الولاء إلى الحكومة العالمية، لتكبح جماح الحرب من قبل الدول والمجموعات، وزيادة حرية الصحافة والكلام والتنقل، وإصلاح التعليم؛ إذ يجب ألا يعلم الأطفال تقدير مزايا دولهم والافتخار بقتل الأجانب والانتصارات العسكرية، وعلى الدول أن تمنع إثارة الشعور الشوفيني، وتشجيع الدعوة على العصيان المسلح ضد الحكومة العالمية، وباستثناء الحدود المفروضة، والتي سبق عرضها، يجب إعطاء حرية أكبر في التربية والتعليم، وعلى المدرسين تقبل الآراء المختلفة، ما دامت لا تشكل خطرًا يؤدي إلى نشوب الحرب، و«التأكيد الكامل في تعليم التاريخ والمواد الاجتماعية، يجب أن يتركز حول الإنسان وليس حول الدول كل منها على حدة أو مجتمعة»، وإزالة مشاعر الكراهية التي توجد في المناهج التعليمية لدى أغلب الدول، وخلق تعليم يعزز مشاعر الصداقة[54].

إن «التعليم الذي أساسه وجوب تصديق كل ما يدرس سرعان ما يقود المرء في خطوات سريعة إلى فساد القوى الذهنية، ولا يمكن المحافظة على الحد الأدنى الضروري من التقدم البشري إلا بالإبقاء على روح البحث الحر»[55]، لكون بعض من المدرسين يعملون على غرس عادات ذهنية كالطاعة والنظام وازدراء الخصوم، والتصديق الأعمى، بدل الحفاظ على استقلال الطفل، وتنمية التفكير واحترام المختلفين في الرأي.

لذا، نظر **راسل** بعين المستقبل إلى العالم الذي نطمح إليه، وكيف يمكن أن يعمل العلم والفن والأدب في تغيير هذا العالم؟ ورأى أنه يجب ألا نمنّي النفس بأن الإنسان لا يمكن أن يحقق الرخاء والطمأنينة إلا في عالم آخر، فلا توجد حاجة إلى انتظار الجنة، فعالمنا يمكن أن يحقق فيه الإنسان السعادة وتجاوز المآسي والآلام التي سببها لنفسه، إذا ما قرر هو بنفسه هذا الاختيار[56]، فحرية الإنسان المطلقة هي التي قادته إلى هذا الخراب، وهو يملك حرية الاختيار لتجاوزها.

فقد رأى **راسل** أنه لا يمكن الحديث عن نظرية سياسية؛ إذ لم يشمل مجال تطبيقها الأطفال، لكون «بعض المسائل المتعلقة بالتربية بوصفها نظاما سياسيا يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار في معرض إعادة بناء المجتمع»، والنظريات التربوية لا تعنى بمسائل من هذا النوع، فالتعليم يستعمل أهم وسيلة للحفاظ على الوضع القائم دون تغييره، وسلاحا سياسيا لغرس القيم والأفكار التي تريدها الأنظمة السياسية

53 زكي نجيب محمود، **راسل**، الطبعة الثانية، (سلسلة نوابغ الفكر الغربي، دار المعارف بمصر)، ص.ص: 116-118

54 راسل، **هل لإنسان مستقبل؟**، مرجع سابق، ص.ص: 152.151

55 زكي نجيب محمود، مرجع سابق، ص: 115

56 المرجع السابق، **هل لإنسان مستقبل؟**، مرجع سابق، ص 153-155

الحاكمة وليس من أجل تنمية كفاية الفكر وتكوين جيل مستقل، ويجب على من يريد أن يسهر على مهمة التربية هذه أن يتشبع بروح الاحترام، وهو ما يفتقر إليه أصحاب النظم الآلية الجامدة، كالنظم الحربية والرأسمالية، كما أن إشراف الدولة والكنيسة والمؤسسات الكبرى على التعليم لا يتفق مع روح هذا الاحترام، لكون الغاية الأساس التي يهدفان إليها ليست هي الطفل في حد ذاته، بل هي غالبا ما تكون غاية سياسية تهدف إلى دعم جماعة ما، سياسية أو دينية أو اجتماعية في ميدان منافستها وهذا ما يحدد المعلومات التي تعطى المتعلمين[57].

كما أن طريقة تدريس بعض المواد مثل التاريخ خاطئة ومشوهة، تعمل على تمجيد الدولة وتغرس في ذهن المتعلمين أن تصورها دائما على حق، وهي طرائق تشجع على النزاع وتشعل جذوة الوطنية المتعصبة، وما دام الحدث نفسه قد يدرس بطرائق مختلفة وروايات مختلفة، اقترح **راسل** إقامة لجنة دولية تشرف على وضع كتب مدرسية محايدة خالية من التحيز لدعم العلاقات الطيبة بين الدول. وهذا ينطبق على الدين أيضا؛ لأن أغلب المدارس تكون تحت سيطرة جماعة دينية أو الدولة التي لها توجه معين في الدين[58]، وهذه السيطرة تجعل الأطفال ينظرون إلى المعتقدات الأخرى نظرة ازدراء، معتقدين أن عقيدتهم هي العقيدة الصحيحة، فيتعلمون التعصب.

تهدف التربية في هدفها العام، في المجتمعات الحديثة، إلى إخضاع الناشئة للنمط القائم، الذي تسيطر عليه الدولة والمؤسسات الدينية، فالدولة تريد خلق مواطنين صالحين ومستعدين للتضحية، وهو هدف المؤسسات الدينية أيضا التي تريد جعل الفرد راضيًا بالوضع القائم، لذلك هذه العلاقة بين الفرد والمجتمع هي مشكلة الدين كما هي مشكلة السياسة والأخلاق[59].

وهكذا، فالنظام التعليمي بصورته المشوهة التي عرضها **راسل**، لا يمكن أن يخلق سوى أجيال من المؤمنين لا من المفكرين؛ لأنه يرغم الأطفال على اعتناق آراء محددة في مسائل يحوطها الشك، بدل تنمية الفكر النقدي وتشجيعهم على التفكير المستقل الحر، وتغذية الرغبة في الوصول إلى الحقيقة، وليس الإيمان بأن عقيدة معينة هي الحقيقة، حيث تعمل المنظمات الخاصة بالتعليم على التحكم في عقول الأطفالاً وتقيم حاجزًا على استخدام عقله[60]، لذلك فمهمة التعليم الأساس يجب أن تتجه نحو إزالة كل أسباب التوتر والكراهية والتعصب للقومية، التي يتم غرسها في نفوس الأطفال داخل المدارس، ومن أجل هذا الهدف تتولى الحكومة العالمية مهمة الإشراف ومراقبة المناهج التعليمية.

---

57 راسل، **نحو عالم أفضل**، مرجع سابق، ص 117-120

58 المرجع السابق، ص ص-123 122

59 نجيب محمود، **راسل**، مرجع سابق، ص ص 116-115

60 المرجع السابق، ص124

ويقع جزء كبير من هذه المهمة على المدرسين، وهي ليست بالمهمة السهلة؛ لأن التعليم أصبح مهمة تعطى الجميع من قبل الدولة، والمدرس يجد نفسه مجبرًا على تنفيذ ما يؤمر به، فقد أصبحت مهمة التعليم الرئيسة تسير نحو القومية التعصبية إلى لدرجة أصبح المتعلمون يجهلون العالم الخارجي وغير قادرين على النقاش الحر، ولا يتوفرون على ما هو مشترك بين الأمم الأخرى[61].

إن القومية المتعصبة التي تأخذ صورة الروح الحزبية المنظمة في زماننا، تؤدي إلى الحروب الأهلية أو أخطر من ذلك إلى حروب بين الأمم، لذلك يجب على المدرسين أن يدعموا الحياد، وخارج أي عراك حزبي وأن يبثوا روح البحث غير المتحيز في نفوس متعلميهم وطلابهم، وروح النقد برفض الجاهز، وفوق ذلك كله بث روح التسامح لفهم أولئك الذين يختلفون عنا، فالقومية المتعصبة تنشأ من محدودية الفكر، وعندما يسافر المدرس بطلابه فكريا لزيارة عقائد الشعوب الأخرى، يذوب الشعور القومي بالتفوق ويزول التعصب الجاهل اتجاه الأمم الأخرى، لكن ذلك لن يكون ممكنا إلا إذا أعطي المدرسون قدرًا كافيا من الحرية؛ لأنهم اليوم غير أحرار في اختيار ما يدرسونه أو كيف يدرسونه، فالمدرس مثل الفنان، والفيلسوف، والأديب، لا ينبغي تقييد حريته بسلطة خارجية[62].

الحكومة العالمية وتحقيق السلام

لقد رأى **راسل** بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، أن النظام العالمي لا يمكن أن يبقى كما هو عليه، وأن تاريخ البشرية محكوم بثلاثة احتمالات هي:

1 - نهاية الحياة البشرية.

2 - العودة إلى البربرية نتيجة نقص عدد سكان الأرض.

3 - إنشاء حكومة عالمية، تحتكر الأسلحة المدمرة جميعا.

ولكنه كان يأمل في أن يتحقق الاحتمال الأخير؛ لأن استمرار الحياة البشرية يتوقف على إنشاء حكومة عالمية لمنع الحروب الكبرى بشكل دائم. أما عن طريقة تأسيس الحكومة العالمية، فقد رأى أنها قد تتحقق بطرائق مختلفة، إما بانتصار الولايات المتحدة في الحرب، أو بانتصار الاتحاد السوفياتي، أو باتفاق بينهم وهو أمر مستبعد؛ لأن الأمل الأقرب هو اتحاد الدول من دون اللجوء إلى حرب عالمية، بل بإرادة سياسية قوية، أو حتى بالقوة، [63]، وهنا اقترب **راسل** في حديثه عن السياسة الخارجية من «طوماس هوبز»، فهذا الأخير يرى في صاحب السيادة الذي يحوز القوة السبيل لحفظ النظام داخل

61 برتراند راسل، **بحوث غير مألوفة**، ترجمة سمير عبده، الطبعة الأولى (دمشق، التكوين للتأليف والترجمة والنشر، 2009)، ص ص: 120-121

62 المرجع السابق، ص: 123-128

63 برتراند راسل، **بحوث غير مألوفة**، مرجع سابق، ص ص: 44-45

الدولة. أما راسل فرأى الشيء نفسه، ولكن في علاقة الدولة خارجيًّا؛ لأنه لا يتصور أن يبقى العالم مستقرًّا وبذلك يتحقق السلام، إلا في وجود سلطة قوية تحتكر القوة.

إن التفكير ضد حكومة عالمية بأنها مشروع طوباوي، يمكن ربطه بالذين يقترحون إيجادها عن طريق الاتفاق، لكن العداوة بين الغرب وروسيا لن يعجل بذلك، وهو ما يدفعنا حسب **راسل** إلى تأييد القوة في تأسيس هذه الحكومة، التي تنشأ باحتكار الطرف المنتصر السلطة، وسواء كان هذا الطرف هو الولايات المتحدة أو الاتحاد السوفياتي، فإن العالم لن ينجح بعد تأسيسها في أي تمرد ناجح، ولكننا نجده يفضل الولايات المتحدة الأمريكية لعدة أسباب، ليس لكون الرأسمالية أفضل من الشيوعية، ولكن السبب الأساس يعود إلى الحرية، فهامش الحرية في هذه الدولة غير موجود في النظام الاشتراكي الذي يمقتها. أما روح الغيرية التي تحتاجها الحكومة العالمية، فهي تبرز مع الوقت، كما حدث مع الرومانيين الذين منحوا المهزومين المواطنة[64].

غير أن الحرية إذا كانت خيرًا، فهي ليست خيرا مطلقا، ولذلك في مجال العلاقات الدولية يجب تقييدها بقوانين فعالة، وإيجاد عقوبات على المخالفين، وهي خطوة صعبة لن تكون ممكنة إلا إذا وجدت قوة عسكرية، مثل قوة الشرطة داخل الدولة[65]. لقد كان يأمل أن يعمل القانون الدولي على إيقاف الحرب، وهو ما لم يتحقق إلى حدود يومنا هذا.

وهو يتصور قيام حكومة عالمية على مراحل، حيث تبدأ المرحلة الأولى بإقناع الولايات المتحدة الأمريكية والكومونولوت البريطاني بتوحيد العالم حربيا، وإقناع باقي الدول الأخرى الناطقة بالإنجليزية بدخول الحلف وتقديم إغراءات اقتصادية أو عسكرية لتلك المترددة. أما المرحلة الثانية، فهي تأتي عندما يكتسب الحلف قوته، حيث يتم اللجوء إلى القوة حتى تنضم الدول العظمى إلى الحلف، وإذا رفضت يتم تصنيفها عدوًّا عامًّا، وستنتهي الحرب ضدها باحتكار الأسلحة ومن ثمة تحقيق السلام، ولكن إذا كان الحلف قويا بما فيه الكفاية فلا حاجة إلى الحرب؛ لأن الدول ستفضل الدخول إلى الحلف على الدخول في حرب ضد هذا الحلف، فلكي نخرج من حرب عظمى لا مخرج سوى هذا الحل[66].

إن اقتراح **راسل** بشأن قيادة الولايات المتحدة عملية تأسيس الحكومة العالمية وإنشاء السلام، جاء بعد نهاية الاتحاد السوفياتي، وتفوق الولايات المتحدة الأمريكية عسكريًّا، الأمر الذي جعلها الدولة الوحيدة القادرة على قيادة أي عملية عسكرية في أنحاء العالم، وجعل بعضهم يرى في هذه الدولة مفتاحًا

64 المرجع السابق، ص: 46-49

65 المرجع السابق، ص ص: 53-54

66 المرجع السابق، ص ص: 51-52

لتحقيق السلام العالمي ونمو اقتصادي تحت إمبراطورية أمريكية عالمية، تشبه الإمبراطورية البريطانية في القرن التاسع عشر، وهي مقارنة خاطئة، فتاريخ هذه الإمبراطوريات لم يجلب يوما السلام[67].

والحقيقة أن الولايات المتحدة الأمريكية باتت تنصب نفسها خارج القانون الدولي، مبررة تدخلاتها بحماية الديمقراطية وحقوق الإنسان، وهي تدخلات في أغلبها لا تتوافق مع القانون الدولي، فهي لم تنتظر مثلا، مصادقة مجلس الأمن على التدخل في العراق، وهو ما يعري سياسة هذه الدولة، ويكشف زيف شعاراتها، ويفرض النقاش حول فاعلية المؤسسات الدولية في الحفاظ على السلام العالمي، ومدى قدرتها على دفع الدول إلى احترام القانون الدولي، فالدولة التي عقد **راسل** آماله عليها لتحقيق السلام هي أكثر الدول تهديدًا له في عالمنا اليوم.

إن الحرب العالمية الأولى والمأساة التي خلفتها، وكذا الخطر النووي الذي كاد يعوق يجهز على البشرية دفع **راسل** إلى الإيمان أكثر بفكرة الحكومة العالمية التي نجده يؤكدها في أغلب كتبه السياسية، وهي فكرة نابعة من كون السلام العالمي سيبقى مهددًا ما دام أن كل دولة لها سيادتها وجيشها الخاص، لذلك انتقد **راسل** بشدة فكرة السيادة المطلقة، ورأى أن الطريق نحو السلام يمر عبر تخلي الدول عن سيادتها المطلقة في علاقتها مع الدول الأخرى والتنازل عنها لصالح «حكومة عالمية»، ما دام أن الحرب لا تنهيها غلبة دولة على الدول الأخرى جميعها، الطريقة الوحيدة لمنع نشوب أي حرب في المستقبل هي إنشاء سلطة عالمية؛ لأنه ما دام لكل دولة من دول العالم سيادة ولها جيشها، فلا يمكن أن نضمن عدم نشوب حرب، ويكمن الحل في وجود جيش واحد وأسطول واحد في العالم، ولا يهدد ذلك مهام الدولة المدنية؛ إذ يمكنها أن تمارس هذه المهام بطريقة عادية[68].

فالدول كالأفراد، فكما أن الفرد لا يمكنه إعلان حريته المطلقة، فالشيء نفسه بالنسبة إلى الدولة، فتقرير الحرية المطلقة معناه إقرار المسائل الخارجية بالقوة، وهذا يمثل عودة الحالة الطبيعية؛ إذ يصبح القرار النهائي متوقفًا على الأقوى كما قال «هوبز»، ولهذا السبب رأى **راسل** أنه «ليس في وسعنا ضمان السلم في العالم أو إقرار المسائل العالمية طبقا للقانون الدولي، ما لم تتنازل الدول عن حريتها المطلقة في علاقاتها الخارجية وتدع الفصل في مثل هذه الأمور في أيدي أداة حكومية عالمية، تشريعية وقضائية معا»، فوجود هيئة تنفيذية تطبق القانون الدولي مهم جدًّا، وإذا كانت مشكلات الأرض أحد أسباب الحرب، فسيكون لهذه الهيئة التنفيذية سلطة ضم أرض دولة إلى دولة أخرى، إذا كان ذلك يتماشى مع العدل ومع تطورات الأجيال، لذلك يخطئ دعاة السلام في نظر **راسل** عندما ينادون بترك الحدود بين

67 أريك هوبزباوم، **العولمة والديمقراطية والإرهاب**، ترجمة أكرم حمدان ونزهت طيب، الطبعة الأولى، (قطر، الدار العربية للعلوم ناشرون، مركز الجزيرة للدراسات، 2009م)، ص ص: 36-37

68 راسل، **نحو عالم أفضل**، مرجع سابق، ص 87

الدول كما هي؛ لأن من طبيعة الأمم أنها تقوى وتضعف، وعدد السكان يتغير، وبذلك فتغيير الحدود أمر واقعي إذا كان من يقوم به هيئة دولية بدل أن يتعقد الوضع ويشتد الميل إلى الحرب[69].

ومن ثمة، فقيام سلطة عالمية بوظائفها رهين بامتلاكها قوة تشريعية وأخرى تنفيذية. لذلك، اقترح **راسل** أن يكون دستور الهيئة التشريعية فيدراليًّا، حيث ينبغي على كل دولة، أن تحافظ على استقلالها بشأن الحرب أو السلم، وأن توجد اتحادات متجانسة بعدد سكان متساوٍ، ولها مصالح مشتركة، وعندما تندمج هذه الدويلات في هذه الاتحادات الثانوية، فإنه على السلطة العالمية أن تأخذ زمام العلاقات الخارجية لهذه الاتحادات وليس الدويلات، ما لم يكن هناك تصرف غير دستوري أو خطر نشوب حرب، وتمتلك السلطة التشريعية الرقابة على المعاهدات التي لا يمكن أن تصبح سارية المفعول دون موافقتها، ولها حق الاعتراض على أنظمة التعليم المغالية في القومية والتي تهدد السلام، وكما أن هناك حاجة إلى السلطة التشريعية هناك حاجة إلى سلطة تنفيذية تكون مسؤولة أمام السلطة التشريعية، ومهمة هذه السلطة الرئيسة هي الإعلان عن أي خرق للدستور العالمي من قبل أي دولة قومية، أو مجموعة من الدول، ومعاقبة من يقوم بذلك[70].

وبالإضافة إلى السلطتين التنفيذية والتشريعية يدعو راسل إلى زيادة سلطة القضاء الدولي عبر توسيع قوته وصلاحياته، وتمتيع المحاكم الدولية، كمحكمة لاهاي، بسلطات تعادل السلطة التي تمتلكها المحاكم الوطنية، لمحاربة مرتكبي الجرائم في بلادهم[71]، وحتى على مستوى نشاطه الشخصي فقد قام راسل مع مجموعة من المفكرين ك»جون بول سارتر» و»إسحاق دويتشر» وغيرهما بتأسيس محكمة «جرائم الحرب الدولية» لفضح الجرائم المرتكبة في العالم، ولا غرابة في ذلك خصوصا أنه عرف بنشاطه المعادي الحرب، وبتفاعله مع العديد مع الحروب مثل الحرب الأمريكية على فتنام ودعوته إلى محاكمة المسؤولين عنها.

وفي كتابه «هل للإنسان مستقبل؟» رد **راسل** على الاعتراضات التي وجهت إلى فكرة الحكومة العالمية، ورأى أن أقواها هي التي ترتبط بالعاطفة القومية، حيث يرتفع الشعور بالكبرياء وبأن حرية قومية ما مهددة، ولذلك فإن إنشاء حكومة عالمية يجب أن يأخذ بعين الاعتبار هذا الشعور، الذي يرفضه معتبرًا أن الدول القومية لا ينبغي أن تتمتع بحرية مطلقة، ومن الضروري وجود قيود تمنع الاعتداءات الوحشية على حرية الآخرين؛ إذ لا يجوز القتل غير الشرعي في كل مكان، فإلغاء القوانين التي تحرم القتل سيشكل خطرا على حرية الناس في جميع أنحاء العالم[72].

---

69 راسل، **مثل سياسية عليا**، مرجع سابق، ص ص: 58-59

70 راسل، **هل للإنسان مستقبل؟**، مرجع سابق، ص ص: 94-95

71 المرجع السابق، ص96

72 المرجع السابق، ص ص97-98.

ومن هنا وجد **راسل** أن القانون الدولي سيبقى فارغًا وغير مفيد ومجرد أسطورة، إذا لم تكن هناك قوة تلزم الدول الخضوع له، فلا أمل أن تخضع الدول، وخصوصا تلك التي تمتلك أسلحة كثيرة، في غياب قوة ملزمة، ولذلك فإن إقامة حكومة دولية رهين بإزالة الأسباب التي قد تؤدي إليها عبر إزالة أسلحة الدمار الشامل، بوصفها مهدد السلام العالمي الأكبر.

ومن الاعتراضات التي توجه إلى الحكومة العالمية، تلك التي كانت ترتبط بالدول الشيوعية بشكل خاص، ومفادها أنه ما دام التعارض قائما بين الشيوعيين ومناهضيهم، فإنه سيكون من الصعب إقامة حكومة عالمية، لذلك من الضروري إيجاد تشريع يعطي كل دولة الحرية في ترتيب اقتصادها كما تريد، مع ضرورة احترام هذه الحرية والتسامح بين الحكومات المختلفة، لكن لحظة التفاوض يجب أن تكون فارغة من كل إعجاب بالذات القومية وتفوقها[73].

تواجه الحكومة العالمية حجة أخرى، وهي خطر الطغيان العسكري، والتخوف من عصيان عسكري على رأس القوات الدولية العسكرية، وفرض أحد الجنرالات نفسه إمبراطورًا على دول العالم، لكنها ليست مشكلة جديدة تواجه الحكومة العالمية، فمشكلة الطغيان موجودة على مر التاريخ، وفي العديد من الدول، عندما ظهرت هذه المشكلة، استطاعت الحكومة المدنية أن تسيطر على الجيش، لذلك رأى **راسل** أن غرس فكرة الولاء للحكومة العالمية ضروري، خصوصا لدى القوات العسكرية المسلحة، وما يجعل احتمال الثورة القومية صعبا إذا لم يكن مستحيلًا هو أن القوات المسلحة يجب أن تتكون من جنسيات مختلفة[74].

كما أشار راسل إلى عقبة أخرى تقدم اعتراضًا على الحكومة العالمية وإنشائها، وهي عقبة سيكولوجية بالأساس، ترتبط بغياب عدو خارجي يعزز التماسك الاجتماعي، الذي يزداد مع وجود خطر خارجي، فحافز الطاعة والامتثال يكون ضعيفا في غياب العدو، لذلك خلص **راسل** إلى أن التربية ستكون قادرة على خلق حافز يقوي الالتحام داخل الدولة العالمية؛ وذلك عبر تذكير الناس بالمخاطر التي تحدق بهم، كالفقر والأوبئة، وبأن غياب طاعة الحكومة العالمية معناه عودة الحرب العالمية[75].

ذهب **راسل** إلى أن تاريخ الإنسانية المليء بالحروب، يقف دون إدراك خطورة الحريات القومية الفوضوية على حياة البشرية، فخلق مؤسسات عالمية تمنع الحرب سيخلق حرية أكثر لمنع القتل عابر الحدود، مثلما نمنع القتل داخل الدولة عندما نقيد الحرية الفردية بالقانون. لذلك، فأهم المشاكل التي تواجه إنشاء حكومة عالمية فعالة، مرتبط بالقومية، ستبقى غير مرغوب فيها ما دام هذا الشعور سائدا ومحط إعجاب من قبل الكثيرين[76].

---

73 راسل، **هل للإنسان مستقبل؟**، مرجع سابق، ص ص 100-101

74 المرجع السابق، ص ص101-102

75 المرجع السابق، ص ص102-103

76 المرجع السابق، ص ص99-100

هكذا، ننتهي إلى أن فكرة الحكومة العالمية، على الرغم من إخفاق تحقيقها إلى حدود اليوم لا تنفصل عن أشكال «التنظيم الاجتماعي» التي بلورها الإنسان من أجل تنظيم العيش المشترك؛ إذ عرف تاريخ البشرية أشكالا مختلفة من التنظيم بدءا بالإمبراطوريات كما كان الحال في الحضارات الشرقية القديمة التي كانت تمتد على مساحة جغرافية كبيرة، وصولا إلى الدولة بشكلها الحالي، وإذا كان تعارض المصالح هو الذي يعوق إنشاء شكل تنظيمي عالمي، فقد يقود تطور هذه المصالح نفسها إلى تأسيس الحكومة العالمية، لذلك تبقى فكرة الحكومة العالمية نوعا من «اليوتوبيا الواقعية» التي يمكن أن نشهد تطبيقها في المستقبل.

خاتمة:

خلاصة ما توصلنا إليه من خلال الاشتغال على تناول الفلسفة المعاصرة لمفهوم السلام، وأنموذج **راسل** ومشروعه حول السلام، أن نفك الارتباط فيه بين ما هو مرغوب فيه، وما يمكن تحقيقه من هذا المشروع، وكذلك إبراز أهمية مساهمته في تاريخ الفكر الفلسفي حول فكرة السلام:

-ان البحث الفلسفي حول السلام في المرحلة المعاصرة، والذي فرضته الأحداث الكبرى التي عرفها القرن العشرون، خصوصا الحروب العالمية، سيشكل نقطة تحول كبير في تفكير راسل السياسي، قاده إلى الدفاع عن مستقبل البشرية.

-إضافة إلى مساهمة راسل النظرية في الدعوة إلى السلام والتنبيه إلى مخاطر الحرب، شارك أيضا عمليا في النضال ضد كل ما يهدد السلام ومستقبل البشرية، وتفاعل مع العديد من القضايا السياسية، راسما تجربة فريدة، من الالتزام والنضال ضد الحرب ومقاومة هذه الحماقة البشرية التي تغذيها عوامل كثيرة، يعود بعضها في نظره إلى أيديولوجية القومية والتفوق العنصري، وبعضها الآخر إلى الطبيعة البشرية ذاتها التي تنزع نحو الصراع، لذلك كانت منهجية **راسل** في تناول موضوع الحرب والسلام هي الانطلاق من فهم الحرب قبل الدعوة إلى السلام، واعتمدت طريقته نوعا من «اليوتوبيا الواقعية» التي تهدف إلى التفكير في تنظيم اجتماعي مستقبلي، يقود المجتمع البشري نحو عالم أفضل.

-إن تفسير **راسل** لأسباب الحرب بإرجاعها إلى دوافع نفسية وايديولوجية شكل إضافة نوعية أثرت الفلسفة السياسية المعاصرة، التي حللت أسباب الحرب بالتركيز على العلاقات السياسية والاقتصادية فقط.

-أن منهجية راسل لتحقيق السلام والخروج من حالة الحرب التي تهدد مستقبل البشرية، خصوصا مع اختراع القنبلة النووية، تمثلت في الدعوة إلى إنشاء حكومة عالمية، والذي يمر عبر خطوات أولية يعدّ التزامها أساسًا، أولها كبح القومية وفكرة السيادة المطلقة، فبقدر ما يدعم راسل الحرية الفردية داخل الدولة ويرفض ما يمسها، بقدر ما يرفض منحها الدول في علاقتها الخارجية. لذلك، لا خيار سوى توحيد العالم في حكومة عالمية.

-أن دعوة راسل إلى السلام تغذت بالتجارب والأحداث الوطنية والعالمية التي عاصرها في القرن العشرين.

-أنه لم يقم بصياغة مشروع السلام دون النظر في آليات تحققه؛ إذ تميز مشروعه بطرح حلول يمكن أن تجد طريقها نحو التطبيق، بدءا بإصلاحات سياسية وتعليمية واقتصادية، وغيرها من الإجراءات.

-إن دعوة **راسل** إلى إنشاء حكومة عالمية تجمع بين المثالية والواقعية، بالرغم من أنه كان مقتنعا بأنها أهم الحلول التي يمكنها أن تتحقق؛ لأنه ومثلما نجحت البشرية في وضع شكل جديد من التنظيم السياسي، والذي يتمثل في الدولة القومية الحديثة، يمكنها أن تنجح كذلك في المستقبل في اقتراح شكل تنظيمي عالمي هو الحكومة العالمية، من أجل تحقيق السلام.

المراجع المعتمدة:

- برتراند راسل، نحو عالم أفضل، ترجمة عبد الكريم احمد ودريني خشبة، الطبعة الأولى، (المركز القومي للترجمة، 1956).
- برتراند راسل، "هل للإنسان مستقبل؟"، ترجمة سمير عبده. الطبعة الأولى، (دمشق، دار دمشق، أبريل 1969).
- برتراند راسل، المجتمع البشري في الأخلاق والسياسة، ترجمة عبد الكريم احمد، (القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1960).
- برتراند راسل، أثر العلم في المجتمع، ترجمة صباح صديق الملوجي، الطبعة الأولى، (بيروت، المنظمة العربية للترجمة، 2008).
- برتراند راسل، الشيطان على الأرض، إعداد وتقديم حنا تادرس، الطبعة الأولى (لبنان، مكتبة السائح، 2017).
- برتراند راسل. آمال جديدة في عالم متغير، ترجمة عبد الكريم أحمد، الطبعة الأولى (القاهرة-آفاق للنشر والتوزيع 2018).
- برتراند راسل، المجتمع البشري في الأخلاق والسياسة، ترجمة عبد الكريم احمد، (القاهرة، مكتبة الإنجليزية المصرية، 1960).
- برتراند راسل، مثل عليا سياسية، ترجمة فزاد كامل عبد العزيز. (الدار القومية للنشر، بدون ط، بدون تاريخ).
- برتراند راسل، التربية والنظام الاجتماعي، ترجمة سمير عبده، الطبعة الثانية، (بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، 1978).
- برتراند راسل، بحوث غير مألوفة، ترجمة سمير عبده، الطبعة الأولى (دمشق، دار التكوين، 2009).
- برتراند راسل، هل للإنسان مستقبل؟ ترجمة سمير عبده، الطبعة الأولى (دار دمشق، أبريل 1969).
- رمسيس عوض، برتراند راسل المفكر السياسي، (الدار القومية للطباعة والنشر 1966).
- رمسيس عوض، برتراند راسل الإنسان، (سلسلة مذاهب وشخصيات، الدار القومية للطباعة والنشر، 1999).
- زكي نجيب محمود، راسل، الطبعة الثانية، (مصر، سلسلة نوابغ الفكر الغربي، دار المعارف، بدون تاريخ).
- أريك هوبزباوم، العولمة والديمقراطية والإرهاب، ترجمة أكرم حمدان ونزهت طيب، الطبعة الأولى، (قطر، الدار العربية للعلوم ناشرون، مركز الجزيرة للدراسات، 2009).

Mominoun
MominounWithoutBorders
@ Mominoun_sm

info@mominoun.com
www.mominoun.com